



الطفل الفلسطيني يامن

— محمد أمان التيال - المغرب —

احك له أسطورة السلام في غابة الذئب المحتال^(١)، أنبئه أن الحرب العادلة في عصرنا عين المثال، وأن مرحلة ذي القرنين أسطورة من نسج الخيال، ثم انصحته بالكف عن الهمز واللمز، عن ذكر المقاومة ولو بالهمس، وأن يتفهم حق إسرائيل في الدفاع عن النفس.

ظل يامن ساكناً سكون الدمع في محجر العين، ثم هطلت كلماته كغرامة السيل: حُضْنُ أُمِّي.. ظهر أبي.. هَدْرُ^(٢) إخوتي.. حكايات جدتي.. ما ذنبي لأعيش محروماً طريداً في وطني، منسياً في غربتي؟

ألا يرى الساكت يديه الملتختين بالدماء؟^(٣) هلح الصغير من طائر العنقاء المتفطرس في السماء؟ أليس من قتلها «فكأنما قتل الناس جميعاً»؟ أم أن آلهة النماء أولى بالوفاء؟^(٤)

أيا يامن معذرة إن سقراط أزعجنا فأعدمناه، وعمر عيس في وجهنا فتبذناه، فإن يك مُصعباً، فقلعه الأقرب إلينا، لكننا نتوقاه، فهل بيدنا ما نترجاه؟

أجل يا سيدي! إنه ينظر إليك من هناك.. من أرض الإسرائ، طيفُ براءته يلامسُ سقف السماء، سوادُ بؤسِه يحجبُ الضياء، أنينه برقٌ، صرخته رعدٌ، ودمعه خزيٌ على السامدين من الأحياء.

اسمه يامن يسأل عن حضنٍ أقبرته همجية خريت، عن أهلٍ أذابت عظامهم لظىً من كبريت، أخبره أن الغدر يُيت وهم يستنشقون السلام فوق الغيم، يستبشرون بقوس قزح، منبعث من واحتين، فارتوي يا فسائل الزيتون بزخات الوريد ببركات ذات البين.

يامن مكابدة مؤؤود دامت يومين، أدفنى منطادة بسورة أو سورتين، وأرسله سائحاً، فمض العنين. سبع بقرات عجاف تقات على الأسودين.. سكان كوكب يشهدون كرنفلاً مكتوب في اليدين.. ومجرم متفطرس يكسر أنفه طفل دون العامين.

قل له: أعلم أن أسفارهم^(١) تبارك الإبادة الساحقة، أن نبوءاتهم تتوعدنا بالهرمجدون الماحقة، وأن فرسان الطاولة المستديرة قد دانوا لكهنة النار والحديد، وأهدوا سيفاً لهم للمجرم العنيد.

من ينجب الإناث إذن؟

— عائشة سجاد - المغرب —

تَكُ.. تَكُ.. تَكُ.. ببطء شديد تزحف عقارب يومي.. ما أشد وهج الانتظار! أنظر إلى عيني أبي، عميقة هي وبريق الأمل فيها أعمق، حتى الخيبة تنكسر في عيني أبي شعاعاً راضياً، لكنني أخشى حقاً شبح الفشل.. أقترّب منه فيعانقني الفضول النابع من مقلتيه.. من تجاعيد يديه.. من نور محياه.. من بياض غزا رأسه.. من إيمان ملأ قلبه.. من بريق الذكر في السبعة المعقودة بيمنه.. أقبل رأسه ويديه اللتين، وقلبي يسابق أنفاسي اللاهثة.. تأتيني أمي وهي تطوي السلام طياً ولسان حالها يبرق ويمطر وابلاً من الفضول.

أنظر إلى خصلاتها الذهبية المتسللة من تحت حجابها، وجدت نفسي فجأة بين عيون حائرة طامعة في رحمة الله ويسره.

دار بي فلك الزمان لماضٍ نخر، لكن سمومه لا تزال تعصف بها رياح الحاضر. رأيت الجرح غائراً في مقلتي والدتي، وهموم نحتها الدهر بلا أدنى رحمة ولا شفقة على محيا أبي العفيف الطاهر الشريف.

«مئناث».. كلمة ظلت لصيقة أمي حتى يومنا هذا كأنها لعنة - والعياذ بالله -.. وكأن هذه الشابة قد أوتيت أمراً إكفاً.. نعم أنا أنثى! وأختي أنثى! وأختي الأخرى أنثى! وأنا فخور بذلك كما أمي وأبي تماماً.

قالها ذات يوم في قومه ساخراً عندما رزق أبي بالبنت الثالثة، بينما هو محاط بفريق من أبنائه الذكور، وإن أمني شيء في هذه الدنيا فهذا فقط.. حينها لفظ تلك القذارة من فمه النتن وهو يضرب كفا بكف: «أش خاصلك يا العريان؟ الخاتم يا مولاي».

أمثال هؤلاء فقط يحملون في ثنايا ملامحهم ما لا يقدر بكم ولا كيف من الحقارة. يريدون للفني أمثالهم أن ينجبوا ذكوراً ليقوموا بأمور الثروة.. ويريدون للفقير أن ينجب ذكوراً لأن الإناث عبء يزيد فقره، وينزله أسفل الدرجات.

من ينجب الإناث إذن؟

رن الهاتف.. أسرعت إليه لأسمع: «مبروك... مبروووك... لقد تفوقت، يا أستاذة!» هرولت إليّ أمي، هلل أبي، وعلت زغاريد أختي في فرح ما من فرح مثله. سجدت لربي شكراً أن جعلني نوراً وفرجاً لأهلي، وبكيت وأنا أرى

رحمة ربي وسعت كل شيء ■

يا حسرة على بني الإنسان، أترضون بحياة لا أمان فيها للولدان؟ لا حرية فيها كما في سائر البلدان؟ أم أنا أجناسٌ منحلة لا نستحق إلا ميتة الذبيحة وعيشة الخرفان؟

أرواحنا نفخة من الإله الأحد، وبراءتنا فطرة أشبال الأسد، دنيانا نسترخصها أمام الطفغان، فلا تستكثروا إقامة ما هُدم على رؤوسنا من بُنيان، أن تعلموا أبناءنا كيف يفكون اللغز بحُسيبان، فعندما يمتشقُ القلم أبناء القتيل، يستلُ الحقائق من غمدها فرسانُ الخليل، ينفُضُ الناس عن كهنة النار والحديد، تنتهي حكاية السادة والعبيد، تعود للآديان رحمانيتها، ولأيام العيد بهجتها، وتشرق شمس الإنسان من جديد ■

الهوامش:

(١) جمع سَفَر.

(٢) «الإنسان ذئب الإنسان» (هوس).

(٣) هَذَر الصَّبِي: أَرَاغَ الكلامَ وَهُوَ صَغِيرٌ.

(٤) هناك جملة لدوستوفسكي، كان يكررها

سارتر بإعجاب وحماسة، يقول فيها:

متى ما أريق دم في أي بقعة من الأرض،

فإن أيدي كل الناس في العالم ملطخة به.

(٥) «انطلقت إسبارطة في نظرتها للطفل

من غياب دوره الإنتاجي وضعفه، ومن

هنا كان مصير الطفل المصاب بعاهة

كبيرة القتل» (ميثم المناع، حقوق الطفل

في القانون الدولي، ٢٠٠٥ م).